وإنك لعلى خلق عظيم

الخطبة الرابعة والعشرون

غـــزوة أُحـــد

عباد الله، بين السيرة النضرة والمواقف العطرة، بين نفحات العطر وومضات الإشـــراق، نستكمل سيرة عظيم الأخلاق محمد ﷺ.

وها هم بنو الكفار وقد تربصوا بالإسلام وأهله يريدون أن يستأصلوا شأفتهم، و لم تهـــدأ قريش مذ غشيها في بدر ما غشيها، وكان ما جد من الحوادث بعد لا يزيد أحقادها إلا ضراما.

فلما استدارت السنة كانت مكة قد استكملت عدتَها، واجتمع إليهـــا أحلافُهـــا مـــن المشركين، وانضم إليها كل ناقم على الإسلام وأهله، فخرج الجيش السائر في عدد يربو على ثلاثة آلاف، ورأى أبو سفيان أن يستصحب النساء معه حتى يكون ذلك أبلـــغ في استماتة الرجال دون أن تصاب حرماتُهم وأعراضُهم.

وفي منتصف شوال من السنة الثالثة وصل الجيش الزاحف إلى المدينة فنزل قريبًا من جبل أُحُد، وأرسل خيله ترعى زروعها الممتدة هناك.

واجتمع المسلمون حول رسول الله ﷺ يتدبرون أمرهم أيخرجون لمقاتلة العدو في العراء أم يستدرجونه إلى أزقة المدينة، وقد كان الرسول ﷺ يميل إلى الرأي الأخـــير، وأيـــده ﷺ رجال من أولي النظر والرؤية، وقال عبد الله بن أُبَيّ: هذا هو الرأي.

لكن الرجال الذين لم يشهدوا بدرًا تحمَّسوا للخروج، وكذلك ظاهرهم الشباب الطامح في الاستشهاد وبدا أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز لملاقاة العدو.

فدخل الرسول ﷺ بيته وخرج منه لابسًا عدته متهيئًا للقتال، وشعر القوم أنهم استكرهوا الرسول ﷺ، وأظهروا الرغبة في النزول على رأيه، فقال ﷺ: **"إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ**

لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ"[1]، واللأمة: الدرع، وقيل: السلاح.

ثم خرج ﷺ في ألف رجل حتى نزل بأُحُد إلا أن عبد الله بن أُبي انسحب في الطريق بثلث الناس، وتعلل بأن النبي ﷺ حالفه وأخذ بقول غيره، قال تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّا ٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]، وكادت هذه الخيانة أن تؤثر في بعض المؤمنين وهم بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس، يقول تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ۙ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٢]، وهذا الغدر من المنافقين هو المتوقع منهم؛ لأن الدافع للبذل والتضحية هو الإيمان بالله ﷻ والرغبة في ثوابه ورضاه، فإذا فُقد الإيمان؛ فلأي شيء يعرض المنافق نفسه للخطر.

عسكرَ المسلمون بالشِّعْب من أحد في عدوة الوادي (أي جانب الوادي)، جاعلين ظهرهم إلى الجبل، ورسم النبي ﷺ الخطة لكسب المعركة فجاءت محكمة رائعة؛ وزع الرماة على أماكنهم، وأَمَّر عليهم عبد الله بن جبير ﷺ وكانوا خمسين رجلًا، وقال ﷺ: "**انْضَحْ عَنَّا الْخَيْلَ بِالنَّبْلِ، لا يَأْتُونَا مِنْ خَلْفِنَا، إِنْ كَانَتْ لَنَا أَوْ عَلَيْنَا فَاثْبُتْ مَكَانَكَ، لا نُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِكَ**"[2] وكان الرماة في مؤخرة جيشه ﷺ، وأمر ﷺ ألا ينشب قتال إلا بإذنه.

وأخذ ﷺ يتخير الرجال أولي النجدة والبأس ليكونوا طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان.

إن عدد المسلمين على الربع من المشركين، ولن يعوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالألوف وهم آحاد.

---

[1] رواه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (١٤٧٨٧)، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في تغليق التعليق (٣٣٢/٥): إسناده صحيح.

[2] أخرجه الطبري في تفسيره (١٣٢/٦)، و بلفظ قريب صححه الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٢٥١).

وأعطى اللواء مصعب بن عمير ﷺ الذي أدّبه ﷺ فأحسن تأديبه، وجعل ﷺ على الميمنة الزبير بن العوام ﷺ، وعلى الميسرة المنذر بن عمرو ﷺ، وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف، وفيهم مائتا فارس، وعلى ميمنتهم خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل.

وبدأ القتال بانتصار ساحق للمسلمين، وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم، لا بضع مئات قلائل.

واستُشهد حامل اللواء مصعب بن عمير ﷺ، وأخذ اللواء علي بن أبي طالب ﷺ، وأخذ اللواء الإسلامي يتقدم خطوة خطوة.

وبذلت قريش أقصى جهدها لتحطم عنفوان المسلمين، لكنها أحست العجز وانكسرت همتها أمام ثبات المسلمين وإقدامهم.

وكانت نسوة قريش دائبات على استنهاض رجالهن، يضربن الدفوف، ويحرصن على القتال، تقودهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، تقول:

إِنْ تُقْبِلُوا نُعَانِقْ ... وَنَبْسُطِ النَّمَارِقَ

أَوْ تُدْبِرُوا نُفَارِقْ ... فِرَاقَ غَيْرِ وَامِقِ[1] [2]

ثم أنزل الله نصره، وصدق وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها، **ولكن**؛ قد يجد المرء نفسه في حفل يموج بالأنوار، وتنتشر في أجوائه الآشعة المبصرة، ثم يقع خلل مفاجئ يقطع التيار، فإذا المصابيح تعتم، ثم يسود المكان ظلام موحش سقيم.

إن هذا مثل التحول المستنكر الذي قلب سير المعركة

---

[1] أي فراق لا محبة فيه.

[2] المستدرك (٥٠١٩)، للحاكم رحمه الله.

لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنساني عرضت لفريق من الجند، فأوقعت الارتباك في صفوف الجيش كله، فضاعت في ساعة كل المكاسب التي أحرزتها الشجاعة النادرة والتضحية البالغة.

فلقد علمنا كيف شدد الرسول ﷺ على الرماة الذين كان يحمون ظهور المسلمين ألا يبرحوا أماكنهم، غير أن أثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة في ساعة غفلة، فما أن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش، والنساء يهمن في الجبل، والرجال يولون الأدبار، والغنائم التي خَلَّفَها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادي؛ حتى غادروا مواقعهم هابطين إلى الميدان يبتغون من هذه الغنائم، رغم أن عبد الله بن جبير رضي الله عنه أمرهم بالبقاء فأبوا.

وكان فرسان المشركين بقيادة خالد بن الوليد محصورين لا يجدون ثغرة ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت بهم الهزيمة، فلما رأى خالد أن مؤخرة المسلمين انكشفت، فلم يبق عليها حارس؛ اهتبل الفرصة على عَجَلٍ، واستدار بالخيل وانحدر على المسلمين من حيث لا يحتسبون، ورأى الفارّون من قريش بوادر هذا التغير الطارئ فتراجعوا، وأحيط المسلمون من الخلف والأمام فوقعوا بين شقي الرحى.

على أن الرجال الأحرار لا يصادون بسهولة، إنهم شدهوا لما حدث، ولكنهم أخذوا يقاتلون بحرارة، وإن كان هدفهم هذه المرة أن ينجوا فحسب، واستشهد كثير وهم يحاولون شق طريقهم، واستطاع المشركون أن يقتربوا من رسول الله ﷺ، فرماه أحد المشركين بحجر، فـ"**جُرِحَ وَجْهُ النَّبِيِّ ﷺ، وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، وَهُشِمَتِ الْبَيْضَةُ عَلَى رَأْسِهِ، فَكَانَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام تَغْسِلُ الدَّمَ، وَعَلِيٌّ يُمْسِكُ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّ الدَّمَ لَا يَزِيدُ إِلَّا كَثْرَةً؛ أَخَذَتْ حَصِيرًا فَأَحْرَقَتْهُ حَتَّى صَارَ رَمَادًا، ثُمَّ أَلْزَقَتْهُ فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ**"[1]، وشاع أن محمدًا ﷺ قد قتل، فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٩١١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٩٠).

فوق الجبل، واختلطت على الصحابة ﷺ أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون، إلا أن النبي ﷺ جعل يصيح: **"إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ، إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ"**[1] فاجتمع إليه نفر من الصحابة قليل، منهم طلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وأبو دجانة، وأبو طلحة الأنصاري ﷺ، وقال ﷺ لما رهقوه: **"مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟ فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ رَهِقُوهُ أَيْضًا، فَقَالَ: مَنْ يَرُدُّهُمْ عَنَّا وَلَهُ الْجَنَّةُ أَوْ هُوَ رَفِيقِي فِي الْجَنَّةِ؟ فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِصَاحِبَيْهِ: مَا أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا"**[2].

واستمات هؤلاء النفر حول رسول الله ﷺ، وأخذ طلحة بن عبيد الله ﷺ يقاتل ويصد عن رسول الله ﷺ حتى شلت يداه وهو يقي النبي ﷺ، وأخذ سعد بن أبي وقاص ﷺ يرمي ويذب عن رسول الله ﷺ، يقول له الرسول ﷺ: **"ارْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي"**[3].

وهكذا أبو طلحة الأنصاري ﷺ يقي النبي ﷺ، وكان رجلًا راميًا شديد الترع، **"وَكَانَ الرَّجُلُ يَمُرُّ مَعَهُ الْجَعْبَةُ مِنَ النَّبْلِ، فَيَقُولُ: انْشُرْهَا لِأَبِي طَلْحَةَ، فَأَشْرَفَ النَّبِيُّ ﷺ يَنْظُرُ إِلَى الْقَوْمِ، فَيَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، لَا تُشْرِفْ، يُصِيبُكَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ الْقَوْمِ، نَحْرِي دُونَ نَحْرِكَ"**[4].

وأقبل أُبيّ بن خلف الجمحي على النبي ﷺ، وكان قد حلف أن يقتله، وأيقن أن الفرصة سانحة، فجاء يقول: يا كذاب، أين المفر، وحمل على الرسول بسيفه فقال النبي ﷺ: **"بَلْ أَنَا قَاتِلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ"**[5]، وطعنه طعنة وقع منها يخور خوار الثور، فلم يلبث بعد ذلك إلا أن مات لعنه الله.

---

[1] أخرجه الطبري رحمه الله في تفسيره (٦/٩٩)، وقال ابن كثير رحمه الله في البداية والنهاية (٤/٢٤): غريب جدا وفيه نكارة.

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٨٩).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦١٨٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٤١١).

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٨١١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٨١١).

[5] أخرجه عبد الرزاق الصنعاني في تفسيره (١٠٠١)، وقال الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٢٥٦): مرسل.

وتركت هذه الاستماتة من المسلمين أثرها على الكافرين، حتى فترت حدة قريش في محاولة قتل الرسول ﷺ، وثاب إليه أصحابه من كل ناحية، وأخذوا يلمون شملهم ويزيلون شعثهم، وأمر النبي ﷺ صحبه رضي الله عنهم أن يُترلوا قريشًا من القمة التي احتلوها في الجبل، قائلًا: **"لَيْسَ لَهُمِ أنْ يَعْلُونَا"**[1].

إن الإفلات من عواقب هذا الانكسار الشنيع
عمل لا يقل في خطره عن الانتصار الأول

ولما تجمعت فلول المسلمين بعد هذا الكر والفر؛ كان الإعياء قد نال منهم أي منال، لولا أن الله قذف في قلوبهم السكينة، وأعاد إليها بعد هذا الزلزال الأمل والثقة، فسكنوا حول الرسول ﷺ يرقبون ما يجد، وداعب الكرى[2] أجفان البعض من طول التعب والسهر، قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ** ﴾[آل عمران: ١٥٤]، ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال هذا اليوم العصيب، ووجدت أن المسلمين أصلب عودًا، دون إفنائهم صعاب لا تستطيع احتمالها، فاكتفت مما ظفرت بالإياب.

ثم إن أبا سفيان حين أراد الانصراف أشرف على الجبل، ثم صرخ بأعلى صوته: **"أَنْعَمَتْ فَعَالٌ، إِنَّ الْحَرْبَ سِجَالٌ، يَوْمٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ، اُعْلُ هُبَلُ، أَيْ: أَظْهِرْ دِينَكَ، فقال رسول الله ﷺ لعمر: قُمْ فَأَجِبْهُ، فَقُلِ: اللَّهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، لا سَوَاءٌ، قَتْلانَا فِي الْجَنَّةِ، وَقَتْلاكُمْ فِي النَّارِ، فَلَمَّا أَجَابَ عُمَرُ رضي الله عنه أَبَا سُفْيَانَ، قَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: هَلُمَّ إِلَيَّ يَا عُمَرُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ائْتِهِ فَانْظُرْ مَا شَأْنُهُ، فَجَاءَهُ، فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ: أَنْشُدُكَ اللَّهَ يَا عُمَرُ،**

---

[1] أخرجه أحمد في مسنده (٢٦٠٩)، وقال الشيخ الحويني حفظه الله في كتاب تنبيه الهاجد (٥٧٩/١): "وقال الحاكم: "صحيحُ الإسناد" ووافقه الذهبيُّ، وسندُهُ حسنٌ، وعبد الرحمن بن أبي الزناد فيه مقال يسيرٌ".

[2] الكرى: النعاس.

أَقَتَلْنَا مُحَمَّدًا؟ فَقَالَ عُمَرُ: اللَّهُمَّ لا، وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ كَلامَكَ الآنَ، فَقَالَ: أَنْتَ أَصْدَقُ عِنْدِي مِنَ ابْنِ قُمَيْئَةَ، وَأَشَارَ لِقَوْلِ ابْنِ قُمَيْئَةَ لَهُمْ: إِنِّي قَتَلْتُ مُحَمَّدًا، ثُمَّ نَادَى أَبُو سُفْيَانَ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِي قَتْلَاكُمْ مُثْلَةٌ، وَاللَّهِ مَا رَضِيتُ، وَلَا سَخِطْتُ، وَلَا نَهَيْتُ، وَلَا أَمَرْتُ"[1]، ومضى أبو سفيان وانتهت الغزوة، وخلفت لنا دروسًا ودروسًا، وعبرًا فياضة بالعظات، وقد نزلت في أحداثها آيات طوال، وكان لها في نفس الرسول ﷺ أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته.

ومن مواعظ غزوة أُحُد:

أولا: هؤلاء الأبطال الذين ربّاهم الرسول ﷺ، هم فعلًا الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم، ويوجهون زمامه بعزائمهم، هؤلاء الرجال الذين تربَّوا على نصرة الله، هؤلاء الرجال هم الذين انتزعوا النصر في بدر، وأطفؤوا نار الهزيمة في أُحُد.

فمن هؤلاء الأبطال أبو دجانة رضي الله عنه، أخذ الرسول ﷺ سيفًا يوم أحد، فقال: **"مَنْ يَأْخُذُ مِنِّي هَذَا؟ فَبَسَطُوا أَيْدِيَهُمْ، كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ يَقُولُ: أَنَا أَنَا، قَالَ: فَمَنْ يَأْخُذُهُ بِحَقِّهِ؟ قَالَ: فَأَحْجَمَ الْقَوْمُ، فَقَالَ: سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ أَنَا آخُذُهُ بِحَقِّهِ، قَالَ: فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ الْمُشْرِكِينَ"**[2]، وكان أبو دجانة له عصابة حمراء إذا اعتصب بها علم أنه سيقاتل حتى الموت، وروي أنه أخذ السيف وهو يقول:

أَنَا الَّذِي عَاهَدَنِي خَلِيلِي ... وَنَحْنُ بِالسَّفْحِ لَدَى النَّخِيلِ

أَلَّا أَقُومَ الدَّهْرَ فِي الْكَيُّولِ[3] ... أَضْرِبُ بِسَيْفِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ[4]

---

[1] تفسير الطبري رحمه الله (١٥٤/٦)، وصححه الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٢٥٩).

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٢٤٧٠).

[3] أي لا يقاتل في مؤخرة الصف.

[4] سيرة ابن هشام رحمه الله (٦٨/٢).

ومن هؤلاء سيد الشهداء حمزة ﷺ عم النبي ﷺ وأخوه في الرضاعة، أسد الله وأسد رسوله الذي طالما أطار هامات الكفار، قتل غدرًا في المعركة، يقول وحشي الذي قتله – قد أسلم بعد ذلك– أن جبير بن مطعم سيده قال له: "**إِنْ قَتَلْتَ حَمْزَةَ بِعَمِّي فَأَنْتَ حُرٌّ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ خَرَجَ النَّاسُ عَامَ عَيْنَيْنِ، وَعَيْنَيْنِ جَبَلٌ بِحِيَالِ أُحُدٍ، بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ وَادٍ، خَرَجْتُ مَعَ النَّاسِ إِلَى الْقِتَالِ، فَلَمَّا أَنِ اصْطَفُّوا لِلْقِتَالِ خَرَجَ سِبَاعٌ، فَقَالَ: هَلْ مِنْ مُبَارِزٍ؟ قَالَ: فَخَرَجَ إِلَيْهِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ: يَا سِبَاعُ يَا ابْنَ أُمِّ أَنْمَارٍ مُقَطِّعَةِ الْبُظُورِ[1]، أَتُحَادُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ، قَالَ: ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ فَكَانَ كَأَمْسِ الذَّاهِبِ، قَالَ: وَكَمَنْتُ لِحَمْزَةَ تَحْتَ صَخْرَةٍ فَلَمَّا دَنَا مِنِّي رَمَيْتُهُ بِحَرْبَتِي، فَأَضَعُهَا فِي ثُنَّتِهِ حَتَّى خَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ وَرِكَيْهِ**"[2].

ومن هؤلاء أنس بن النضر ﷺ، وهو عم أنس بن مالك ﷺ الذي قال: "**غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلْتَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ اللَّهُ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ؛ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ؛ قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي: أَصْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ، يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنَ مُعَاذٍ، الْجَنَّةَ! وَرَبِّ النَّضْرِ إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ، أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ، أَوْ رَمْيَةً بِسَهْمٍ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَّلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: كُنَّا نُرَى أَوْ نَظُنُّ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ**

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا

---

[1] يقول الحافظ ابن حجر رحمه الله في فتح الباري (٣٦٩/٧): "قالَ ابن إسحاق: كانَت أُمّه خَتّانَة بِمَكّة تَختِنُ النّساءَ.انتهى، والعَرَب تُطلِقُ هَذا اللّفظ فِي مَعرِض الذّمّ، وإلاّ قالُوا خاتِنَة".

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٠٧٢).

﴿بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]"[1].

ومن هؤلاء الأبطال عبد الله بن حرام والد جابر رضي الله عنهما، يقول جابر رضي الله عنه: **"لَمَّا حَضَرَ أُحُدٌ دَعَانِي أَبِي مِنَ اللَّيْلِ، فَقَالَ: مَا أُرَانِي إِلَّا مَقْتُولًا فِي أَوَّلِ مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنِّي لَا أَتْرُكُ بَعْدِي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيْرَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِنَّ عَلَيَّ دَيْنًا فَاقْضِ، وَاسْتَوْصِ بِأَخَوَاتِكَ خَيْرًا، فَأَصْبَحْنَا فَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ"**[2]، يقول جابر رضي الله عنه: **"جَعَلْتُ أَكْشِفُ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ أَبْكِي، وَيَنْهَوْنِي عَنْهُ، وَالنَّبِيُّ ﷺ لَا يَنْهَانِي، فَجَعَلَتْ عَمَّتِي فَاطِمَةُ تَبْكِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: تَبْكِينَ أَوْ لَا تَبْكِينَ، مَا زَالَتِ الْمَلَائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ"**[3]، يقول جابر رضي الله عنه: **"وَدُفِنَ مَعَهُ آخَرُ فِي قَبْرٍ، ثُمَّ لَمْ تَطِبْ نَفْسِي أَنْ أَتْرُكَهُ مَعَ الْآخَرِ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ، فَإِذَا هُوَ كَيَوْمِ وَضَعْتُهُ هُنَيَّةً غَيْرَ أُذُنِهِ"**[4]، وقال الرسول ﷺ لجابر رضي الله عنه: **"مَا كَلَّمَ اللَّهُ أَحَدًا إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَكَلَّمَ أَبَاكَ كِفَاحًا، فَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ"**[5].

ومنهم اليمان أبو حذيفة رضي الله عنهما، لما خرج الرسول ﷺ إلى أُحُد كان اليمان وصديقه ثابت رضي الله عنهما: **"فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ وَهُمَا شَيْخَانِ كَبِيرَانِ: لا أَبَا لَكَ، مَا نَنْتَظِرُ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَقِيَ لِوَاحِدٍ مِنَّا مِنْ عُمُرِهِ إِلا ظَمَأُ حِمَارٍ** [وقال ذلك لأن الحمار أقصر الدواب ظمأً، والإبل أطولها ظمأ]، **إِنَّمَا نَحْنُ هَامَةُ الْقَوْمِ، أَلا نَأْخُذُ أَسْيَافَنَا ثُمَّ نَلْحَقُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَدَخَلا فِي الْمُسْلِمِينَ وَلا يَعْلَمُونَ بِهِمَا، فَأَمَّا ثَابِتُ بْنُ وَقْشٍ فَقَتَلَهُ الْمُشْرِكُونَ، وَأَمَّا أَبُ حُذَيْفَةَ فَاخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ أَسْيَافُ الْمُسْلِمِينَ، فَقَتَلُوهُ وَلا يَعْرِفُونَهُ،**

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٨٠٥).

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٣٥١).

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٢٤٤)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه بلفظ قريب (٢٤٧١).

[4] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٣٥١).

[5] أخرجه ابن ماجه في سننه (٢٨٠٠)، وصححه الألباني رحمه الله في صحيح الجامع (٧٩٠٥).

فَقَالَ حُذَيْفَةُ: أَبِي أَبِي، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا عَرَفْنَاهُ، وَصُدِّقُوا، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَدَيَهُ، فَتَصَدَّقَ بِهِ حُذَيْفَةُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، فَزَادَهُ ذَلِكَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"[1].

ومن هؤلاء الأبطال مصعب بن عمير ﷺ، ذلك الفتى المترف الذي كان بطلًا لما ترك حياة الترف وكان من أوائل المسلمين، ثم كان بطلًا لما تحمل الأذى، ثم كان بطلًا لما كان سفيرًا للنبي ﷺ، ودخل المدينة قبل المسلمين ونشر الإسلام فيها، ثم كان بطلًا في المعركة، وهكذا فالبطولة لا تولد في المعركة فحسب، ولما مات ﷺ في أُحُد لم يجدوا له إلا ثوبه، إذا غطوا رأسه؛ ظهرت رجله، وإذا غطوا رجله؛ ظهرت رأسه، فأمر النبي ﷺ: **"غَطُّوا بِهَا رَأْسَهُ وَاجْعَلُوا عَلَى رِجْلَيْهِ الْإِذْخِرَ"**[2].

ومن هؤلاء الأبطال عمرو بن الجموح ﷺ، وكان أعرج شديد العرج، وكان له أربعة أبناء شباب يغزون مع رسول الله ﷺ، فمنعه أبناؤه وقالوا له: **"إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ جَعَلَ لَكَ رُخْصَةً، فَلَوْ قَعَدْتَ؛ فَنَحْنُ نَكْفِيكَ، فَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْجِهَادَ، فَأَتَى عَمْرُو ابْنُ الْجَمُوحِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَنِيَّ هَؤُلَاءِ يَمْنَعُونَ أَنْ أَخْرُجَ مَعَكَ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أُسْتَشْهَدَ، فَأَطَأَ بِعَرْجَتِي هَذِهِ فِي الْجَنَّةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الْجِهَادَ، وَقَالَ لِبَنِيهِ: وَمَا عَلَيْكُمْ أَنْ تَدَعُوهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَرْزُقُهُ الشَّهَادَةَ، فَخَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شَهِيدًا"**[3].

ومن هؤلاء الأبطال عبد الله بن جحش ﷺ، فعن سعيد بن المسيب ﷺ قال عبد الله بن جحش : **"اللَّهُمَّ إِنِّي أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ أَلْقَى الْعَدُوَّ غَدًا فَيَقْتُلُونِي، ثُمَّ يَبْقُرُوا بَطْنِي،**

---

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٩٠٩) ، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتاب الدراية (٢/٢٦٦): إسناده حسن.

[2] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه واللفظ له (٤٠٨٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٩٤٠).

[3] أخرجه البيهقي رحمه الله في سننه (١٧٨٢١)، وقال الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٢٦٢): إسناده حسن إن كان الأشياخ من الصحابة، وإلا فهو مرسل، وقال علوي السقاف حفظه الله في كتاب تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن (١٧٥): حسن لغيره.

وَيَجْدَعُوا أَنْفِي وَأُذُنِي، ثُمَّ تَسْأَلُنِي بِمَا ذَاكَ؟ فَأَقُولُ: فِيكَ، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ: إِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَبَرَّ اللَّهُ آخِرَ قَسَمِهِ كَمَا بَرَّ أَوَّلَهُ"[1]، فرأوه آخر النهار مقتولًا وإن أنفه وأذنه معلقتان في خيط.

وذكر الواقدي: **أن معاوية لما أراد أن يجري العين نادى مناديه من كان له قتيل بأحد فليشهد، قال جابر: فحفرنا عنهم، فوجدت أبي في قبره كأنما هو نائم على هيئته، ووجدنا جاره في قبره عمرو بن الجموح ويده على جرحه فأزيلت عنه فانبعث جرحه دما، ويقال: إنه فاح من قبورهم مثل ريح المسك رضي الله عنهم أجمعين، وذلك بعد ست وأربعين سنة من يوم دفنوا.** انتهى.

هذه صورة للرجولة الفارعة التي اصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها، فماد[2] أمامها، واضطربت من تحت أقدامه الأرض، فما ربح شيئًا في بداية القتال، ولا انتفع بما ربح آخره.

يقول عمر بن الخطاب ﷺ عن أم سليط ﷺ: «**فَإِنَّهَا كَانَتْ تَزْفِرُ لَنَا القِرَبَ يَوْمَ أُحُدٍ**"[3].

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم، ولن يقوم للإسلام صرح ولا ينكشف عنه طغيان إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء.

من هو سر هذا الإلهام؟ من مشرق هذا الضياء؟ من مبعث هذا الاقتدار ؟ إنه محمد ﷺ إنه هو الذي ربَّى ذلكم الجيل الفذ، ومن قلبه الكبير خرجت هذه القلوب تفانيًا في الله

---

[1] أخرجه الحاكم في المستدرك (٤٩٠٢)، وقال الذهبي رحمه الله: مرسل صحيح، وقال الألباني رحمه الله في فقه السيرة (٢٦٢): له شاهد موصول.

[2] يقول ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (٤١١/٣): "مَادَ الشَّيْءُ يَميد: زَاغَ".

[3] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٢٨٨١)، تزفر: تحمل، وقيل: تخرز وتخيط.

وإيثارًا لما عنده، إنه هو محمد ﷺ الذي علمنا معنى قوله ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾[محمد: ٧] ، هو محمد ﷺ الذي علمنا أنه لن يكون لنا النصر، ولا التمكين، ولا العلو على أبناء القردة والخنازير إلا بأن ننتصر على أنفسنا.

روي عن ابن عباس ﷺ قال: "**مَا نَصَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي مَوْطِنٍ، كَمَا نَصَرَ يَوْمَ أُحُدٍ، قَالَ: فَأَنْكَرْنَا ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: بَيْنِي وَبَيْنَ مَنْ أَنْكَرَ ذَلِكَ كِتَابُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ فِي يَوْمِ أُحُدٍ: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾[آل عمران: ١٥٢]**"[1].

ثانيا: رحمة الله ﷻ بعباده مسلمين كانوا أو كافرين؛ فلما جُرِح رسولُ الله ﷺ يوم أُحُد، وكُسِرت رَبَاعِيتُه، وهشمت البيضة على رأسه؛ قال:"**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟! فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ: ﴿ لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ ﴾** [آل عمران: ١٢٨] "[2]، فالله ﷻ يُرشد نبيه ﷺ ويعلِّمُه درسًا غاليًا، فمهما كان الإنسان فيه من الكفر، والفسوق، والعصيان؛ فلا نستطيع أن نحكم عليه بنار أو بعذاب، إذ إن أبا سفيان وخالد بن الوليد وهما اللذان لهما اليد الطولى في انهزام المسلمين قد أسلما ﷺ وحسن إسلامهما، بل إن خالدا ﷺ فتح

---

[1] أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده (٢٦٠٩)، وقال أحمد شاكر رحمه الله في عمدة التفسير (٤٢٤/١): إسناده صحيح.

[2] رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٩١).

البلدان، وابن أبي سفيان كان خليفة على المسلمين.

ثالثا: كيفية لوم المنهزم والمنتصر إذا أخطأ: نتعلم أمرًا عجبًا، فقد ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين في أحد على العكس ما نزل في بدر من آيات.

ولا عجب، فحساب المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر، ففي بدر قال تعالى في شأن أَخْذ المسلمين الفدية وتركهم قتل الكافرين الصناديد: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧ – ٦٨]، أما في أُحُد فقد قال سبحانه: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فَحَسْبُ المخطئين ما لَحِقَهم من أوضار[1] الهزيمة، وفي القصاص العاجل درس يُذكِّر المخطئ بسوء ما وقع فيه، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ أي: "لِيَبْتَلِيَكُمْ أَيْ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ الصَّرْفَ مِحْنَةً عَلَيْكُمْ لِتَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَتَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَتَسْتَغْفِرُوهُ"[2].

وقد اتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع وتطهير المؤمنين، حتى لا يتحول انكسارهم في الميدان إلى قنوط يَفِلُّ[3] قواهم وحسرة تشل إنتاجهم.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن

---

[1] قال ابن الأثير رحمه الله في النهاية في غريب الحديث والأثر (١٩٦/٥): "والْوَضَرُ: الأثَر مِنْ غَيْرِ الطِّيب".

[2] تفسير الرازي رحمه الله (٣٨٩/٩).

[3] قال ابن منظور رحمه الله في لسان العرب (٥٣٠/١١): "الفلُّ: الكسر والضرب".

﴿كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧ – ١٣٩].

رابعا: تعليم الله ﷻ الصحابة رضي الله عنهم والمسلمين الثبات في أحلك الظروف، وهذه من العظات الغوالي، فقد عاتب الله ﷻ من أُسقِطَ في أيديهم وانكسرت همتهم لما أشيع أن الرسول ﷺ مات.

ما كذلك يسلك أصحاب العقائد! إنهم أتباع مبادئ لا أتباع أشخاص، ولو افتُرِض أن الرسول ﷺ قُتِل وهو ينافح عن دين الله، فحقٌ على أصحابه أن يثبتوا في مستنقع الموت وأن يَردوا المصير نفسه الذي وَرَدَه قائدهم، لا أن ينهاروا ويتخاذلوا، يقول تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[آل عمران: ١٤٤].

إن عمل محمد ﷺ ينحصر في إضاءة الجوانب المعتمة من فكر الإنسان وضميره، فإذا أدى رسالته ومضى؛ فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها ويتخبط في دياجير الظلام؟!! لقد جمع محمد ﷺ الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله، والذين ارتبطوا به عرفوه إمامًا لهم في الحق وصلة لهم بالله، فإذا مات عبد الله؛ ظلت الصلة الكبرى بالحي الذي لا يموت باقية نامية.

ولقد اتضح الأثر الإيجابي لهذا الدرس يوم أن لحق رسول الله ﷺ فعلًا بالرفيق الأعلى؛ فقد كانت شائعة أُحُدٍ هذه مع ما نزل بسببها من قرآن هي التي أيقظت المسلمين ونبهتهم إلى الحقيقة، فودعوا رسول الله ﷺ بقلوبهم الحزينة، ثم رجعوا إلى الأمانة التي تركها بين أيديهم، أمانة الدعوة والجهاد في سبيل الله، فنهضوا بها أقوياء في إيمانهم وعقيدتهم.

خامسا: محبة النبي ﷺ، فلننظر إلى هؤلاء الرجال الذين ربَّاهم الرسول ﷺ وهم يحمونه بأجسادهم من نبال المشركين وضرباتهم، يتساقطون الواحد إثر الآخر تحت وابل السهام، وهم في نشوة عارمة وحرص حريص على حفظ حياة الرسول ﷺ، لا يبالون بغير ذلك.

فما هو مصدر هذه التضحية العجيبة؟! إنه الإيمان بالله ورسوله ﷺ أولًا، ثم محبة رسول الله ﷺ ثانيًا، والمسلم يحتاج إليهما معًا، ولذلك قال ﷺ: **"لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ"**[1].

وبيان ذلك: أن الله غرس في الإنسان عقلًا وقلبًا؛ فأما العقل: فلكي يفكر به، فيؤمن بما يجب الإيمان به، وأما الثاني: يستعمله في محبة من أمر اللهُ بمحبته، وبغض من أمر ببغضه.

وإذا لم يشتغل القلب بذلك؛ اشتغل بحب الشهوات والأهواء، وإذا فاض القلب بمحبة الشهوات والأهواء؛ فهيهات أن يصبح الاعتقاد وحده حاملًا على أي عمل من أعمال التضحية أو الفداء.

هذه المحبة هي التي استحوذت على أفئدة الصحابة ﷺ عندما رَبّاهم النبي ﷺ

ويوم تمتلئ أفئدة المسلمين بمثل هذه المحبة؛ سيكون لهم شأن عظيم.

وسبيل هذه المحبة في كثرة الذكر، وكثرة الصلاة على النبي ﷺ، والتأمل في سيرته وفي آلاء الله، وهذا كله بعد الاستقامة على العبادات في خشية وخضوع.

سادسا: من هذه الدروس، بل من هذه النعم: **أن هذه الغزوة كانت امتحانا ثقيلًا مَحَّضَ السرائر، ومَزَّق النقاب عن مخبوئها**، فامتاز النفاق عن الإيمان، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه، ففرقٌ بين من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة.

بدأت المعركة بانسحاب عبد الله بن أُبي بن سلول، وهو عملٌ ينطوي على استهانة بمستقبل الإسلام، وغدرٌ به في أحرج الظروف، وتلك أبرز خسائس النفاق، فمن مصلحة الدعوات أن تصاب برجّات عنيفة تعزل خبثها عنها، وقد اقتضت حكمة الله أن يقع هذا التمحيص في أُحُد.

فلئن أفادت وقعة بدر في خذل الكافرين؛ فإن وقعة أُحُدٍ أفادت مثلها في فضح المنافقين،

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٥)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٤٤).

ورب ضارة نافعة، وربما صحت الأجسام بالعلل، يقول تعالى:﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن المنافقين.

سابعا: ومن هذه الثمرات وهذه العظات، بل من أهمها: **ما فعلته المعصية في هذه الغزوة**، وهي عندما عصى الرماة أوامر رسول الله ﷺ.

وانظر كم كان وبال هذه الخطيئة جسيمًا، وكم كانت نتيجتها عامة؛ فلقد عادت خطيئة أفراد قليلة في جيش المسلمين بالوبال عليهم جميعًا، بحيث لم ينج حتى رسول الله ﷺ من نتائجها، وتلك هي سنة الله في الكون، لم يمنعها من الاستمرار أن رسول الله ﷺ موجود في ذلك الجيش وأنه أحب الخلق عند الله جل جلاله، يقول تعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وعصيتم من بعد ما أراكم النصر فسلبتم هذا النصر وذلك الإكرام، فتأمل أنت نسبة خطيئة أولئك الأفراد إلى أخطاء المسلمين المتنوعة اليوم والمتعلقة بشتى نواحي حياتنا العامة والخاصة.

تأمل هذا لتتصور مدى لطف الله بالمسلمين، إذ لا يهلكهم بما تكسب أيديهم، وبتقاعسهم حتى عن أداء واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والاجتماع في كلمة واحدة على ذلك، إذا تأملت هذا؛ علمت الجواب عن سؤال بعضهم اليوم عن الحكمة من أن الشعوب الإسلامية تظل مغلوبة على أمرها أمام الدول الباغية الأخرى، على الرغم من أن هؤلاء كفرة وأولئك مسلمون، ولهذا بين الله ﷻ أن ما أصابهم من

معصيتهم هو من عند أنفسهم، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[آل عمران: ١٦٥].

وفي واحدة من أخبث هذه المعاصي؛ وهي المصايف: إذا أتى الصيف وخلعت الملابس؛ فإذا بالهواء قد تلوث بصيحات العصاة، وماء البحر قد تنجس بأجساد العراة.

ثامنا: ومن هذه العظات الغوالي عباد الله: **ما فعله الرسول ﷺ عندما كان يدفن الشهداء، كان لا يصلي عليهم ولا يغسلهم**، وهكذا حال الشهيد فيدفن بدمه، وكان ﷺ يدفن أكثر من واحد في قبر واحد، إذ إن السنة في دفن الميت بأن يحفر لكل واحد حفرة ويلحد فيها، ومع ذلك كان ﷺ يضع أكثر من واحد.

ولكن يا ترى، مَن يُقَدَّم ويكون أولًا في القبر؟ وعلى أي تقييم؟ يا ترى، هل بالنسب؟ بالطول؟ بأقدميته في الإسلام؟ أم بماذا؟ كان ﷺ يقول: "**أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ**"[1] أي حفظًا له، وهذا يبين لنا مدى اهتمام الشرع بالعناية بكتابه ﷻ، ولكن كما نرى أن كثيرًا من المسلمين اتخذوا هذا القرآن مهجورًا، فلنحافظ إذن على حفظ القرآن، ولنشجع أنفسنا وأطفالنا، علّ الله ﷻ أن يرحمنا.

تاسعا: ودرس آخر يعلمنا إياه رسول الله ﷺ، وهو: **العزيمة، والثبات، ومقاومة عوامل الخَوَر، فإن هُزِم المرءُ، أو فَشِل، أو رسب؛ فلا بد أن يُظهر قوة عزيمته**، أولًا: لله ﷻ بأنه راض معترف بخطئه، وثانيًا: لنفسه بأنها قوية تستطيع المقاومة، وثالثًا: للأعداء الذين يتربصون به.

فالمسلمون دفنوا موجدتهم في أفئدتهم، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذي حل بهم، وكان تكاثرُ خصومهم حولهم سببًا في أن يقاوموا عوامل الخور وأن يبدوا للناس بقية من قوة تَرُدُّ عنهم كيد المتربصين.

---

[1] رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (١٣٤٧).

فقد كانت غزوة أُحد في السبت الخامس عشر من شوال، وخرج الرسول ﷺ في الأحد السادس عشر على نحو ما قال الشاعر:

وَتَجَلُّدِي لِلشَّامِتِينَ أُرِيهِمُ... أَنِّي لِرَيْبِ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعْضَعُ

فقد رأى الرسول ﷺ بعد مغادرة أبي سفيان ورجوعهم إلى المدينة أن يعيد تنظيم رجاله على عجل، وأن يتحامل الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد ليطاردوا جيش قريش.

وسار الرسول ﷺ وجيشه حتى بلغوا حمراء الأسد، واقتربوا من جيش أبي سفيان الذين عادوا إلى التفكير في الرجوع مرة أخرى على المسلمين، إلا أن هذا التفكير تزلزل لما عرفت قريش أن المسلمين عبؤوا أنفسهم لملاقاتهم، وعَسْكَرَ المسلمون بحمراء الأسد، وجاءهم دسيس أبي سفيان يغريهم بالعودة إلى يثرب، ويبين لهم أنهم لا يقدرون على ملاقاتهم، بيد أن المسلمين قبلوا التحدي، وظلوا يوقدون النار طيلة ثلاث ليال في انتظار قريش التي ترجح لديها أن النجاة بنفسها أولى، فعادت إلى مكة، وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى أرفع رؤوسًا وأعز جانبًا.

وفي هذا المظاهرة الناجحة، وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح وإرهاق التعب، وفي ثباتهم واطمئنانهم إلى جانب الله نزلت الآيات الكريمة: ﴿ **ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ [آل عمران:١٧٢ – ١٧٤].

اللهم صل وسلم وزد وبارك على محمد ﷺ